ومن آثاره العلمية الأدبية إصدار أوامره بإحياء المجموعة التي جمعها وزير والده أبو عبد الله محمد بن الحسين اليحمدي المحتوية على أجزاء عشرة، وهذه النسخة توجد بالمكتبة الزيدانية تحت عدد ٨٣٣ مصرح فيها بأن الأمِر بإحيائها هو هذا الأمير العالي الأوامر، وتحبيسه نفائس من الكتب العلمية القيمة على خزانة جامع القرويين العامرة.

السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل

ولد بمكناسة الزيتون سنة أربع وثلاثين ومائة وألف موافق ١٧٢١-١٧٢٢.

وبويع بفاس إثر الفراغ من دفن والده يوم الإثنين خامس وعشرين صفر عام واحد وسبعين ومائة وألف موافق ٨ نونبر سنة ١٧٥٧ سبع وخمسين وسبعمائة وألف وهو يومئذ بمراكش.

ووجهت البيعة من فاس إلى مراكش وقرئت على منبر جامع المنصور بالقصبة هنالك، وكان الذي تولى قراءتها هو قاضي العاصمة الفاسية أبو محمد عبد القادر بن العربي بوخربص الكاملي الجعفري.

وتوفي بين وادي يكم ووادي الشراط ليلة الإثنين سادس وعشري رجب عام أربعة ومائتين وألف، وقيل مات يوم الأحد رابع وعشري الشهر الموافق ١١ إبريل سنة ١٧٩٠ وحمل لداره بالرباط ودفن بإحدى قبابها وقد رمز لتاريخ وفاته أبو الربيع سليمان الحوَّات بقوله:

وإن تـــــرد تاريخـــــه فإنـــــه (قـــد قـــدس الله العزيـــز سره)

قال في حقه عصريه الحافظ أبو محمد عبد السلام بن الخياط الشريف القادري ما لفظه: قد نظر في المصالح وقام بها قياما لم يقم به أحد من أهل عصره من ملوك الإسلام ولم يسبق إليه غيره من الخلفاء غير الراشدين الاثنى عشر ولا أحد من ملوك

المغرب جزاه الله عن أمة مولانا محمد خيرا وإحسانا، وكان إماما من علماء الإسلام له تصانيف تقرأ بالمشرق والمغرب فهو الإمام الموهوب لهذه الأمة على رأس المائة مجددًا لها أمر دينها ما ورد ذلك مرفوعا هـ.

فمن آثاره جلب الآلات الحربية من مختلف بلاد أوربا من ذلك المهراس الموجود بدار الآثار من البطحاء بهذه الحضرة قرأت في نقشه ما لفظه: «الحمد لله وحده، هذا المهراس المبارك صنعوه في الوندريس على أمر سيدي محمد بن عبد الله سلطان المغرب نصره الله عام ١١٨٣».

وكم جلب برَّد الله ثراه من مهارس ومدافع ملأ بها ثغور الأيالة وحصونها.

ومنها تجديد ضريح الشيخ علي بن حرزهم دفين خارج باب الفتوح عام ١١٧٧ سبعة وسبعين ومائة وألف، يدل لذلك ما قرأته في نقش زليج يمين الداخل للضريح المذكور، ولفظه بعد الحمدلة والصلاة:

إن شئت أعلى مقام ... حط الرحال أمامي
واخضع لدي لتشفى ... من ألم وسقام
وكيف لا وضريح ابـ ... ـن حرزهم في انتظام
وشاد عزما بنائي ... فخر الملوك العظام
محمد الحمد ملجأ ... وغوث كل الأنام
نجل خلائف غر ... سادات قوم كرام
على يد مرتضاه (الصـ ... ـفار) بدءُ ارتسام
في عام (يشفيك طه ١١٧٧ ... بالحب) حسن ختام

وبيساره بعد الحمدلة والصلاة:

هذا المقام أمير العصر شيده ... فخر السلاطين سر الله في الناس

محمد نجل أشراف الملوك ومن ... لا يحوين حلاه طي قرطاس
قد أحرز الخير بالشيخ ابن حرزهم ... أكرم بطود العلوم الشامخ الراس
على يد الماجد الصفار تاريخه ... (يبقى لك اليمن ١١٧٧ والإسعاد في

ومنها تجديد ضريح الشيخ دراس بن إسماعيل أواخر المائة الثانية عشرة وجعل عليه قبة محكمة البناء متقنة العمل، وهي الموجودة عليه الآن.

وأسس سقاية عين البغل من حومة العيون عام ستة وتسعين ومائة وألف يدل لذلك ما هو منقوش في زليج أخضر على صورة البيضة، ولفظه:

شاد حسني وجمالي ... نزهة للناظرينا
..... عبد السلام ... أشرف الحكام فينا
ماء واد من نداه ... به قد زان العيونا
نزه الألحاظ واشرب ... واغترف ماء معينا
وادي للاسمى (الجعيدي) ... وأمير المؤمنينا
نقش تاريخي (ويغفر ١١٩٦) ... للذي قال آمينا

ومنها تجديد مدرسة باب عجيسة؛ وزيادته في توسعة مسجد الشرابليين من طالعة فاس وتصييره له مسجدا جامعا تقام فيه الجمعة.

ومن آثاره حسبما بالحلل البهية بناؤه الباب المواجه لقبة الضريح الإدريسي الموالي لسوق المجادلين، وعليه مكتوب من إنشاء صاحب الشمقمقية:

بديع محاسني زان العيونا ... وحسن شمائلي سحر الجفونا
وموطني السعيد يفوح عطرا ... بذكر الله رب العالمينا
ومجدي ثابت لا ريب فيه ... بقطب الغرب كهف العابدينا
وزدت مجادة لما كساني ... وطرزني أمير المؤمنينا

محمد الإمام أخو المزايا ... وباني المجد بنيانا مكينا
أجاد أمينه الصفار صنعي ... وأحسن إذ تخيره أمينا
وتاريخي (بشعبان ١١١٨ جلي) ... يدوم به هناء المسلمينا

وقد استكمل العلم في دولته الشريفة نصابه، إذ سهل لطلابه أسبابه، وفتح لهم أبوابه، ورفع عنهم بالبذل أستاره ومزق حجابه.

ومما يعد في طالعة النهضة العلمية في دولة هذا الإمام حضّه العلماء على نشر العلم وبثه بالتدريس والتأليف وبث روح المنافسة بينهم في ذلك؛ فأمر بشرح مشارق الأنوار للإمام الصغاني[1] فشرح منها الشيخ التاودي ابن سودة الثلث الأول وشرح أبو السعود الشيخ عبد القادر بوخريص الثلث الثاني، وقفت عليه في مجلد ضخم في القطع الكبير بخط دقيق أنيق اشتمل على أربعمائة صحيفة واثنتين وستين صحيفة، بكل صحيفة أحد وثلاثون سطرا، وقد أفصح مؤلفه فيه لدا تعرضه لشرح حديث أم الحصين الأخمسية الذي أخرجه مسلم في السمع والطاعة لمن عمل بكتاب الله من كتاب الإمارة والجماعة بما لفظه بعد كلام: فمولانا المنصور بالله (يعني صاحب الترجمة) هو الذي أمر بتكميل هذا الشرح لما رأى به من الاختصار وهو بعض للآفات وبرأيه وتنصيصه على المآخذ ومواضعها من شراح البخاري؛ ابن حجر، والقسطلاني، والعيني، وزكريا وغيرهم، ومن شراح مسلم؛ المازري، وعياض، والقرطبي وما يلخصه منهم الإمام الأبي والشيخ سيدي محمد السنوسي وغيرهم مما يحتاج إليه في التكميل في كتابه الأعز بذلك فهو صادر عنه؛ فالرأي في ذلك رأيه بجمعه ممن ذكر فهو الذي أهبطه من الجبل برأيه السديد، ونظره الرشيد، فما كان من نقص وخطأ فمنا

(١) الإمام المحدث الحافظ أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن المولود سنة ٥٥٥ المتوفى سنة ٦٥٠ كان يكتب بنفسه لنفسه الصغاني من غير ألف. اهـ. ملخصا من القاموس وشرحه.

وما كان من صواب فمنه؛ لأنه عيَّن تلك المحال وغيرها بذهنه أيده الله ونصره؛ ثم قال بعد كلام: وماذا فيه من مزايا لا يحصى، وسجايا الكرام لا تعد فيه ولا تستقصى، وكيف لا والفرع يتبع الأصل الكريم، بارك الله فيه ونصره والعجز على تلك الأوصاف الشريفة التي لم ينلها أحد ممن سبق أدراك هـ.

وشرح الثلث الأخير من المشارق المذكور الحافظ أبو العلاء إدريس العراقي وأدركته المنية قبل إكماله، فأمر المترجم ولده أبا محمد عبد الله المتوفى بالوباء عام أربعة وثلاثين ومائتين وألف ١٢٣٤ بإكماله وإخراجه من مبيضته فامتثل، كما أمر العلامة أبا عبد الله التاودي ابن سودة بشرح بيتين وهما:

إذا المال لم يوجب عليك عطاؤه ... صنيعة تقوى أو حبيب توامقه

منعت وبعض المنع حزم وقوة ... فلم يفتلتك المال إلا حقائقه

وأمر بشرحهما أيضا أبا حفص الفاسي والشرحان معًا ضمن مجموع بالخزانة الزيدانية.

وهذا السلطان هو أول من وضع أول حجرة في أساس نظام العدلية وإصلاح الدروس في جامع القرويين فيما أعلم وبين ما يدرس من العلوم فيه وما لا، ففي عام ثلاثة ومائتين وألف أصدر منشورًا بما ذكر للعلامة الشيخ التاودي بفاس ملخصه بعد افتتاحه: ليعلم الواقف على هذه الفصول المذكورة في هذا الكتاب أننا نأمر باتباعها والاقتصار عليها ولا يتعداها إلى ما سواها:

الفصل الأول في أحكام القضاة: فإن القاضي الذي ظهر في أحكامه جورٌ أو زورٌ أو ما يقرب من ذلك من الفتاوى الواهية، فإن الفقهاء يجتمعون عليه ويعزلونه عن خطة القضاء ولا يحكم على أحد أبدا.

الفصل الثاني في أئمة المساجد: فكل إمام لم يرضه أهل الفضل والدين من أهل

حومته يعزلونه في الحين ويأتون بغيره ممن يرضون إمامته.

الفصل الثالث في المدرسين في مساجد فاس: فأننا أمرنا ألا يدرسوا إلا كتاب الله تعالى بتفسيره، ومن كتب الحديث المساند والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلم وغيرها من الكتب الصحاح؛ ومن كتب الفقه المدونة والبيان والتحصيل ومقدمة ابن رشد والجواهر لابن شاس والنوادر والرسالة لابن أبي زيد وغير ذلك من كتب الأقدمين.

ومن أراد تدريس مختصر خليل فإنما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمواق والحطاب والشيخ علي الأجهوري والخرشي الكبير لا غير، فهذه الشروح الخمسة بها يدرس خليل مقصورا وفيها كفاية، وما عداها من الشروح كلها ينبذ ولا يدرس به.

ونص على أن الذي يقرأ من كتب السيرة الاكتفا للكلاعي وسيرة ابن سيد الناس اليعمري؛ ومن كتب النحو التسهيل والألفية وغيرهما من الكتب المفيدة؛ ومن كتب البيان الإيضاح والمطول وكتب الصرف وديون الشعراء الستة ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب، وأمثالها مما يعين على فهم كلام العرب لأنها وسيلة إلى فهم كتاب الله وحديث رسوله؛ وأمر بالاقتصار في قراءة علم الكلام على عقيدة ابن أبي زيد القيرواني التي افتتح بها رسالته إلى أن قال في آخر المنشور المشار: وكذلك الفقهاء الذين يقرءون الاسطرلاب وعلم الحساب فيأخذون حظهم من الأحباس لما في ذلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لأوقات الصلاة والميراث؛ وعلى هذا يكون العمل إن شاء الله ونأمر الفقيه السيد التاودي أن يكون عمله على ما في هذا الكناش.

وبعد أن قرر ما ذكر وغيره مما يرجع للنظامات المذكورة مما هو مبسوط في (إتحاف أعلام الناس) وجه بذلك لعلماء مصر وكتب لهم كتابا نص الغرض منه:

نريد منكم أن تطالعوا مسائل أخرى مذكورة في هذا الدفتر يمنته قد أمرنا قضاة

المغرب أن يحكموا بها فما كان منها على صواب أثبتوه واكتبوا عليه بخطوط أيديكم، وما كان منها على خطأ اكتبوا عليه أيضا بخطوط أيديكم في الدفتر المذكور لنرجع عنها ووجهوا لنا الكناش بعينه وعليه خطوط أيديكم هـ.

وناهيك في هذا الباب أنه كان يباسط العلماء والأدباء ويُداعبهم كأنه واحد منهم وحسبك دليلا أن أبا الفيض حمدون ابن الحاج السلمي المتوفى عام ١٢٣٢ كان يوما في مجلسه الشريف مع جماعة من العلماء الملازمين لحضرته سنة ١١٩٩ تسع وتسعين ومائة وألف فأُديرت عليهم كئوس من الاتاي وكان اسم الوصيف الذي يديرها ميمونا فناول أولا الكأس للسلطان وكان عن اليسار فقال له: إذًا يقول السيد حمدون:

صددت الكأس يا ميمون عنا ... وكان الكأس مجراها اليمينا

فقال السيد حمدون: نعم! وأزيد عليه:

ولم تعمل بحكم الشرع فينا ... كما جلاه خير المرسلينا
رسول الله فيما صح عنه ... من أنه قال ناولها يمينا
ويكفي في إرعوائك ما روينا ... عن الحبر ابن عباس مبينا
من أنه كان وهو صغير سن ... يمين رسول رب العالمينا
وسيف الله كان على يسار ... وقد حضر الشراب له معينا
فناوله له بعد ارتواء ... وقال حقيق أنت به يقينا
وأن تؤثر سواك به ففضل ... تنال به ثواب المؤثرينا
فأقسم لست أُوثر من سواءي ... بحظ منك بر به يمينا
وأعجب منك يا ميمون إذ لم ... يكن هذا ببالك مستبينا
وأنت بمجلس يزهو بعلم ... لمولانا أمير المؤمنينا
محمد بن عبد الله من لم ... يزل يبدي لنا العلم المتينا

بـه طلعـت شـموس لأهـل فـاس ... بأقـصى مغـرب للناظرينـا
ولم يعـرف لهـا مـن قبـل ذكـر ... ولا طرقـت بـأذن الـسامعينا
وجامعـه تـضمن مـا حوتـه ... وجمعـه فيـه سـؤل الراغبينـا
ونـصر الله وقـع في سـيوف ... لـه فيهـا حتـوف الكافرينـا:
ويُخـزهمُ وينـصركم علـيهم ... ويـشف صـدور قـوم مؤمنينـا
أدام الله نـصره في ازديـاد ... وأجزلـه ثـواب المحـسنينا

صح عن خط الأديب السيد عبد الله أخي الشيخ حمدون المذكور (قلت) وهذا لعمري غاية التنزيل والميل كل الميل للعلم وأهله.

وله في الموضوع مقامة آية في اللطف والظرف شرحها بعض قرابته في مجلد ضخم وهو محمد الطالب بن محمد بن الحاج دعي المرابط.

ومن آثاره بفاس أيضا إقطاعه للسادات الشرفاء صرحاء الأنساب من الأدارسة إراثة مال المنقطعين وجباية الأعشار وحصرهم في ست عشرة شعبة جعل الأنعام عليهم خصوصا بذلك وأصدر بذلك ظهيرًا يأمر فيه بتعداد النسخ منه وتسجيله في حوالة القرويين زيادة في صيانته والمحافظة عليه طيب الله ثراه، وجعل الفردوس نزله ومثواه.

ومنها تجديد بعض حنايا قنطرة سبو العديمة النظير عظما وضخامة ومتانة وإتقان صنع يدل لذلك ما قرأته في نقش زليج أسود بأعلى أحد أقواسها ودونكم لفظ البقية الباقية منه: الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله:

شـيَّدني معظـم ودود ... أمـام غـرب فـضله معهـود
محمـد ابـن مـن لـه صـعود ... عبـد الإلـه الملـك الـسعيد
ونـشأتي تاريخهـا المعـدود ... تكـراره أدت بـه شـهود

صح منها وتمام القطعة أصبح في خبر كان لم تبق منه غير ألفاظ مبعثرة، والبقاء لله وحده.

السلطان اليزيد بن محمد بن عبد الله

ولد عام ١١٨٠ موافق ١٧٦٦-١٧٦٧.

وبويع له بعد وفاة والده بجبل العلم في رجب عام أربعة ومائتين وألف موافق أبريل سنة ١٧٩٠.

وتوفي بمراكش ليلة الجمعة ثالث وعشري جمادى الأخيرة في ثلث الليل الأخير بالقبة التي ولد بها وذلك عام ١٢٠٦ موافق ١٧ يبراير سنة ١٧٩٢ اثنتين وتسعين وسبعمائة وألف.

ودفن بقبور الشرفاء السعديين هنالك بإزاء ضريح السلطان عبد الله السعدي ونقش على رخامة ضريحه ما لفظه: هذا قبر السلطان مولاي اليزيد الذي حرك من الغرب بخمسة آلاف ونصف وهزم أخاه مولاي هشاما بأربعة وأربعين ألفا؛ وقفت على قبره وقد أُزيل قصدًا جل ذلك النقش.

قال أبو عبد الله الضُّعَيِّف في حقه ما لفظه: وقال لا نكون أميرًا إلا إذا كانت أبواب المدائن تبيت مفتوحة ولا يخافون من لص ولا سارق هـ

وقال: إنه خطب يوم عيد الفطر بفاس فقال: أيها الناس إن الله تعالى ولّاني عليكم وأوجب عليكم طاعتي وخدمتي قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} وقال صلى الله عليه وسلم إلى أن قال: هذا رمضان قد حرم الله فيه الدماء وقد فات فمن رد منكم المظالم فذاك وإلا فالسيف هـ

من آثاره بهذه المدينة المحتفل فيها جلب أنواع من الآلات الحربية من أوربا من ذلك المدافع الموجودة بدار الآثار من قصر البطحاء الشهيرة بهذه الحضرة الفاسية